من الفتوة الإسلامية

(1)

روعت أوروبا وأخذها المقيم المقعد حين علمت أن صلاح الدين قد استرد مدينة القدس وقوض مملكة اللاتين في فلسطين وسورية. وورد على انجلترا وفرنسا من قوة الجيش المصري وقدرة العاهل الأيوبي ما أقلقهما على حاضر الإقطاع الصليبي في الشام، ومستقبل الاستعمار الأوربي في الشرق، فألبتا عليهما الفروسية المسيحية بقساوتها وضراوتها وتعصبها وحقدها وغدرها لتقلم أظفار الجيش الظافر، وتحبس عنان القائد الطموح.

وكان موقف فيليب وريكاردوس من صلاح الدين هو موقف حفيديهما جي موليه وإيدن من جمال عبد الناصر. والسبب الأول للموقفين واحد، هو خطر الجيش المصري القوي على الغزو الصليبي الذي بدأ في آخر القرن الحادي عشر واستمر حتى منتصف القرن العشرين !.

أقبلت جيوش الغزوة الصليبية الثالثة إلى الشام سنة 1189م يقودها سبعة وعشرون ملكًا وأميرًا يتقدمهم فيليب أغسطس ملك فرنسا، وريكاردوس قلب الأسد ملك بريطانيا، وفريدريك باربروس ملك بروسيا، فبدأت بحصار عكا، ثم انتهت بعد ثلاث سنوات بهدنة الرملة، وحسبي من حديث هذه الغزوة أن أجلو لك من صفحاتها صفحة الفتوة أو الفروسية التي تجلت في شجاعة صلاح الدين وشهامته ونبله:

طلب إليه الملوك الصليبيون قبل القتال أن يجتمع بهم ليسمع منهم ويسمعوا منه. فسار إليهم في كتيبة من أقوياء جنده وسألهم ماذا يريدون. فقالوا له: إن أوروبا رمتك بما لا قبل لك به من ملوك وجيوش وقادة، وإن من الخير لك ولقومك أن تجلو عن بيت المقدس وإلا ذقت وبال أمرك.

فقال صلاح الدين: إنكم تعتزون بكثرة العدد ونحن نعتز بقوة الإيمان، وإنكم تحبون الدنيا وتتعلقون بها، ونحن نحب الآخرة ونعمل بها، ولن ينتصر من أحب الحياة، ولن ينهزم من طلب الموت.

فنهض ملك انجلترا من بين الملوك وقال للترجمان: قل لصلاح الدين: إن أنا قلب الأسد والقوة عندنا هي كل شيء، وسأريه البرهان. ثم دعا بقضيب من الحديد قطره ثلاثة سنتيمترات ووضع طرفه على منضدة وطرفه الآخر على منضدة، ثم سل سيفه وأهوى به على القضيب فاخترطه نصفين. ثم عاد إلى مكانه بين تصفيق الحضور ولغده منفوخ وأنفه شامخ. فضحك صلاح الدين ضحكة المستهزئ وقال لريكاردوس: ليست الحرب صلابة سيف وقوة ساعد، وإنما الحرب مضاء حد وسداد يد. ثم أخرج من منطقته منديلاً من الحرير الرقيق وقذف به إلى أعلى ثم تلقاه بسيفه فشطره. ثم تناول شطري المنديل بشباة سيفه وألقاهما في حجر قلب الأسد وهو يقول: بمثل هذا السيف سنلقاكم غداً! وانصرف وترك الملوك والفرسان مبهوتين مشدودين ينظر بعضهم إلى بعض وقد استولى عليهم صمت عميق. ثم انفجروا معجبين بصلاح الدين حين حاول ريكاردوس أن يقطع المنديل بإمراره على حد سيفه فلم ينقطع!.

(2)

قال العماد الأصفهاني كاتب صلاح الدين في كتابه (الفتح القدسي): " وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة متزينة، قد اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجرائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة، ولاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة. وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية، فعجبوا كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية ".

ومضى العماد يذكر ماذا كان يفعل أولئك النسوة في استغواء الأغرار واستراق الأخبار واستلاب الأنفس. وتكتيب الغواني في جيوش الاستعمار سياسة سنتها فرنسا ونهجتها انجلترا، وصادفت هوى في نفوس الصهيونيين فطبقوها على نطاق واسع في السياسة والتجارة والحرب، ولا يزال إخواننا الفلسطينيون يذكرون سوء عقباها في التمهيد لقيام إسرائيل!.

* * * * *

كان بين هؤلاء الحسان المجندات فتاة استخلصها الملك ريكاردوس لنفسه، فكانت تقوم على خدمته في خيمته، وتعنى براحته مع أخته وزوجته، وكانت الفتاة على حظ عظم من جمال الوجه ورقة القلب وخفة الروح، فأحبها قلب الأسد كل الحب، وأخلصت هي له كل الإخلاص، فكانت عينَه على أقرانه وأذنه بين قواده، فعلمت من طريقها الخاص أن فريقًا من القادة قد ضاقوا بحدة طبعه وشراسة خلقه فائتمروا به ليقتلوه. فأخبرته بما علمت، فاتهم الخبر وأبى أن يصدق أن أحدًا من خلق الله يجرؤ على مواجهته بالسيف. وكان من عادة ريكاردوس أن يطوف بالليل على قواده وأجناده ليتعرف حالهم ويطمئن بالهم. فافتقدته الفتاة في خيمته ذات ساعة من الليل فلم تجده. فخرجت تبحث عنه فضلت الطريق ودخلت في معسكر المسلمين، فظنها الحراس جاسوسًا فرماها أحدهم بسهم فسقطت على الأرض تتلوى وتئن، واتفق حينئذ أن مر صلاح الدين في طوافه بهذا المكان فسمع الأنين فاقترب من مصدره فإذا الفتاة مضرجة بالدم فاقدة الوعي، فاحتملها على ذراعيه إلى أول خيمة في المعسكر. ودعا لها بطبيب أخرج النصل من فخذها وتعهدها بالعلاج حتى برئت. وكان صلاح الدين يسأل عنها الحين بعد الحين. فلما مثلت بين يديه بعد البرء راعه ما رأى من جمالها فأضمر حبها في قلبه، وأنزلها على الرحب من عطفه.

وفي إحدى الأماسي عرض قواده عليه بعض كبار الأسرى وهو في خيمته فعرفت الفتاة من بينهم قائدًا من خواص قلب الأسد فاستأذنت السلطان أن تتحدث إليه فأذن. فلما سألته عن مولاه أخبرها أنه سمع اليوم أثناء المعركة أن خصومه من الفرنسيين والانجليز قد قرروا اغتياله في هذه الليلة، ولولا أنه وقع في الأسر لذهب إليه يحذره. فجزعت الفتاة على ملكها، ولم تملك سوابق دمعها، فاسترسلت في البكاء. فسألها صلاح الدين عما بها، وعما قاله الأسير لها، فأفضت ليه بجلية الأمر.

لو لم يكن صلاح الدين مطبوعًا بحكم نشأته وعقيدته على خلال الفتوة الإسلامية لاغتبط بهذه المؤامرة التي ستكفيه شر عدوه وهو عماد الحرب الصليبية وفارسها الأول، ولكنه فعل ما نشر في آفاق الغرب فضله، وخلد على وجه الزمان ذكره! أرسل

إلى مكان المؤامرة الذي عينه الأسير سرية من أشجع فرسانه لينقذوا ريكاردوس من كيد خصومه.

وكان قلب الأسد قد خرج على عادته بعد المعركة يتفقد أحوال جنده، وكان قد خرج في هذه الليلة وحده، لأن القواد الثلاثة الذين كانوا يرافقونه في جولاته أسر أحدهم وقتل الآخران في اليوم نفسه، أخذ يمشي في ساحة القتال ساهمًا حزينًا يتوسم الوجوه ويتسمع الأنات فيترحم على القتلى ويتألم للجرحى، وينحني على من يعرفه منهم فيودعه بالرحمة أو يشجعه بالأمل، حتى رأى قائدًا ملقى على وجهه، فجثا على ركبتيه يقلبه فعرف فيه قائدًا فرنسيًا كان يقدمه ويكرمه، فاشتد حزنه عليه وأطال وقوفه عنده، فلما أدار ظهره إليه لينصرف نهض من رقدته ونفخ في بوق صغير فإذا رجال يقومون من بين القتلى ويحدقون بريكاردوس وقد شهروا السيوف! فدهش الملك من المفاجأة أول الأمر ثم تذكر سيفه فأعمله فيهم وكاد يأتي عليهم لولا أن احتوشوه في الظلام وطوقوه بالكثرة فأيقن أنه هالك. وفي هذه اللحظة الحرجة جاءته نجدة صلاح الدين فصرعتهم من حوله، ثم طلبوا إليه أن يصحبهم إلى السلطان فسار معهم مطمئن القلب لاعتقاده أن الملك الذي ينقذ عدوه من القتل يستحيل عليه أن يسلم ضيفه إلى الأسر.

وكان لقاء السلطان للملك لقاء جميلاً نبيلاً كأنهما لم يقتتلا طوال اليوم، ولن يقتتلا طوال الغد! وبالغ صلاح الدين في إكرام ضيفه فدعا بحبيبته إليه. فلما رآها تخرج من خيمة السلطان خالجه فيها الشك وساوره عليها الغضب، ولكن بطل الإسلام ورمز الفتوة أخبره بما كان منها وبما حدث لها، فضمها الملك مسرورًا إلى صدره، وخرج بها مخفورًا إلى معسكره.

* * * * *

كان صلاح الدين قد أحب الفتاة كما قلت، وكان في مقدوره ومن حقه أن يتخذها سبية حرب، ولكنه حين علم منها أن الملك يحبها وأنها تحبه لم ينس أنه صلاح الدين، فمحا صورتها من ذهنه، وغلَّب في أمرها وفاءه على حبه، كما غلب في أمر ملكها مروءته على بغضه !.